حياة الألفاظ

الاستاذ شفيق جبري

نمرّ في هذا العصر بألفاظ فصيحة لها معانٍ خاصة في اللغة ولكنّا تصرّفنا في هذه المعاني بعض التصرّف على سبيل المجاز ، من هذه الألفاظ : الصعيد والمستوى والإطار وغيرها ، فالصعيد في اللغة معناها : التراب أو وجه الأرض ، ولكنّا اذا وقع نظرنا على هذا التركيب : على الصعيد الدولي أو على الصعيد السياسي ، فهل معنى الصعيد في هذا المقام : التراب أو وجه الأرض ؟ ما أظن شيئاً من ذلك ، ولست أدري هل نجد مثل هذا التركيب في لغتنا الأدبية القديمة ، ولست أقصد في قولي هذا شيئاً من الاستنكار وانما الذي أقصده انما هو التنبيه على تصرّف عصرنا في بعض المعاني .

ومن هذا القبيل لفظة : المستوى ، إنّا نجد في اللغة : استوى: اعتدل والرجلُ بلغ أشدّه أو أربعين سنة والى السماء صعد أو عمد أو قصد أو أقبل عليها أو استولى ، وكما تصرّفنا بعض التصرف في معنى الصعيد فكذلك تصرفنا مثل هذا التصرف في معنى المستوى ، فكثيراً ما نمرُّ بهذا التركيب : على مستوى الوزراء أو على مستوى الرؤساء أو ما شاكل ذلك ، ولسنا نجد في هذا التركيب شيئاً من المعاني التي تقدّمت الاشارة اليها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ومن هذا النمط : لفظة الإطار ، فالإطار في اللغة لها معانٍ كثيرة فالإطار ككتاب : الحلقة من الناس وقضبان الكرم تلتوي للتعريش وما يفصل بين الشفة وبين شعرات الشارب وخشب المنخل وكل ما أحاط بشيء ، ولا شك في أن هذا المعنى الأخير هو الذي يراد به في لغة عصرنا، فاذا قالوا : في الإطار القومي أو الإطار الوطني فانما يريدون بقولهم ما يحيط بالقومية أو بالوطنية .

لا أريد أن أتبسط في الاستشهاد أكثر من ذلك ، لقد ذكّرني هذا التصرف كتاباً من الكتب الفرنسية الجليلة وهو كتاب : حياة الألفاظ لصاحبه « أرسين دارمستتر » أستاذ الأدب الفرنسي في القرون الوسطى وأستاذ اللغة الفرنسية في كلية الآداب في باريز ، ومن هذه الألقاب تتبيّن لنا قدرة المؤلف على الخوض في الموضوع الدقيق الذي خاض فيه في كتابه : حياة الألفاظ ، واذا تمنّيت شيئاً فاني أتمنّى أن يكون في لغتنا كتاب من هذا الوزن ، أو أن يتيسّر لنا على الأقل ترجمته .

افتتح المؤلف كتابه بالمدخل ثمّ بالقاء نظرة عامة على الموضوع ، وليس من السهل تلخيص محتويات هذا الكتاب ، وإنّي لأكتفي بالاشارة الى أقسامه الثلاثة ، ففي القسم الاول تكلّم على ميلاد الألفاظ ، وفي القسم الثاني بيّن كيف تعيش الألفاظ بعضها مع بعض ، أو كيف تتعايش الألفاظ اذا صحّ هذا التعبير ، وفي القسم الثالث وضّح كيف تموت الالفاظ ، واني لآسف على أن يدي لا تصل الآن الى تقريظ أكبر كتّاب فرنسة لهذا الكتاب وأعني به « أناتول فرانس » .

اني أرجع الى مطالعة كتاب : حياة الألفاظ من حين الى آخر ، وآخر مطالعتي له نشأ عنها اقتباس لأفكار جاءت في مقالي هذا .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لاريب في أن اللغات لا يستمرّ بقاؤها على حالةٍ واحدة ، فهي عرضة للتحوّل أو للتطوّر على لغة هذا العصر ، انها عرضة لقوتين مختلفتين : قوة المحافظة أي القوّة التي تبقي اللغة على حالتها ، وقوّة الثورة أو التجديد التي تدفع باللغات الى وجهات جديدة .

من عوامل المحافظة حضارة الأمة مهما تكن هذه الحضارة بسيطة ، واعتناء الأهل بمراقبة تلفظ الأطفال والذوق السليم في هذه اللغة والرغبة في الحصول على لغة ممتازة ، واذا ترفعنا عن هذه العوامل وارتفعنا الى أفق أعلى فانّا نجد للكتب المقدّسة كالقرآن في بلاد الإسلام أو كالتوراة في بلاد أهل التوراة مكانة عظيمة في المحافظة . واذا جاوزنا هذا كلّه فانّا نجد في الآثار الادبية التي تستولي على أذواق الناس وتوحي الى الذين يجيئون بعدهم عبادة الصيغة التي لامثيل لها ــ مايحمل على المحافظة . هذه هي أهمّ العوامل التي تعمل على صفاء اللغة .

أمّا العوامل التي تقف في وجه كل ما ذكرت فانها تتلخّص في كلمة: الثورة أو تطوّر اللغة ، وهذا التطور يظهر في فساد التلفظ وفي تغيير قواعد النحو وفي إدخال الألفاظ الأعجمية على اللغة ، فطائفة من علماء اللغة يجدون أن سلامة اللغة تنحصر في تتبّع آثار الثورة مع التقيّد في الوقت نفسه بمبادىء المحافظة .

قوّتان مختلفتان تعملان في اللغة : قوّة الثورة وقوّة المحافظة ، فالمهم أن نعرف ماذا يحدث اذا تغلبت احدى هاتين القوتين على الأخرى ، فعلماء اللغة يجدون أن الثورة اذا لم تعمل عملها وبقيت اللغة جامدة على حالها فان خاتمة هذه اللغة انما هو الهلاك ، فالشعوب التي لاتتغيّر حضارتها والتي لا تاريخ لها تستطيع أن تبقى لغتها على حالتها دون أن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يمسّها شيء فان الفكر اذا لم يتغيّر فالبيان المعبّر عن هذا الفكر لايتغيّر أيضا ، ولكن اذا منعت اللغة عن تتبع مجرى الأفكار وحدث التناقض بين أفكار الأمة وبين الصيغة التي تعبّر عن هذه الأفكار فاللغة قد تموت، وقد ضربوا مثلا لذلك اللغة اللاتينية « الكلاسيكية » فان لغة الكتّاب ولغة الجماعة الرومانية الراقية التي امتنعت عن اتباع لغة الشعب اللاتينية قد هلكت وماتت .

واذا كانت قوة الثورة وحدها هي التي تعمل فان اللغة التي تتقلّب في طرق التغيّرات سرعان ما تتحوّل وجوهها ، فمرّة تظهر وكأنّها لغة جديدة ومرة تظهر وكأنها تنقسم انقسامات مختلفة، ففي بعض القبائل المتوحشة بطن واحد يشاهد لغاتٍ تحيا ثم تموت ثم تحيا على وجه جديد .

قد يخشى بعض علماء اللغة أن تتغلب قوّة من القوّتين على الاخرى فاذا تغلّبت قوة الثورة على قوّة المحافظة فقد تتوجه اللغة نحو آفاق مجهولة ، إذ تدخلها ألفاظ جديدة أو تراكيب جديدة فتحلّ محلّ ألفاظ اللغة الأصيلة وتراكيبها الأصيلة ، فاذا حدث هذا فلا يعلم مصير اللغة الاّ الله تعالى ولا تأثير حينئذ لشكوى رجال النحو أو رجال المحافظة على صفاء اللغة .

والخلاصة اذا كان لا مندوحة لعصرنا عن بعض الأخذ بقوة الثورة أو التجديد فأرجو أن يلهمنا الله تعالى شيئا من الاعتدال في هذا التجديد حتى يبقى لنا صفاء لغتنا التي يتصّل بقاؤنا ببقائها .

شفيق جبري

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net